العقلانية العلمية في التراث الإسلامي .. الماوردي أنموذجا

أسماء الشامسية

يتصدى الكاتب محمد أحمد عوّاد عبر مقاله «العقلانية العلمية عند الماوردي في كتابه «أدب الدنيا والدين» لعرض مظاهر العقلانية العلمية في التراث الإسلامي من خلال رؤى الماوردي معزّزا بحثه بخمس قضايا ضمن تجربة الماوردي العقلانية وهي: العلاقة بين العقل والتجربة والسببية في العَالَم والتفسير السببي ودور التجربة في تكوين القيم الخُلقية وأخلاقيات العَالم.

فحسبَ عوّاد يذهب الماوردي إلى أنّ ما يفترض أن يصل إليه العلم هو «بلوغ الحقيقة» وإنّ على طالب الحقيقة أن يتجنّب العقبات التي تقف في طريقه في سبيل تحقيق هذا المقصد وأهم هذه العقبات هي «اتّباع الهوى»، إذ نجد الماوردي يؤسس لأولى قاعدة لمنهجه العقلاني العلمي ممثلاً في الموضوعية وتجنب الأهواء الشخصية وإسقاطات التجارب والخبرات الذاتية، أضف إلى ذلك وجوبه شرط فرط الذكاء وحسن الفطنة. وعن مبدأ السببية فإنّ الماوردي يضع ظواهر العالم على طرفي "سَبب ونتيجة" وأن ظواهر العَالَم التي تحكمها القوانين السببية هي نتاج للفعل الإلهي.

إننا نجد في هذه الضرورة القصوى لتحقيق بلوغ الحقيقة عند الماوردي من الأهمية بمكان بالنظر إلى تعريفه للعقل الذي هو عنده عقل غريزي ومكتسب يتكون الأخير نتيجة للثاني فالعقل الغريزي هو نتيجة الأوليات العقلية. والمدركات الحسية أي الحواس الخمسة المعروفة والبدهيّات، وإنّ نمو هذا العقل وتطوّره بالتجارب الإنسانية وإعماله بالحسّ ينتج عنه عقل مكتسب لا يكتمل إلى بدعم التّجربة، فالماوردي إذن لا يقصي دور التجربة لبلوغ الحقائق بل يؤيدها تمامًا للوصول إلى النتائج.

يُرجع عوّاد اهتمام الماوردي بالمذهب التجريبي إلى اهتمامه بالعلوم التجريبيّة كالطب والكيمياء والفلك ومن ذلك ما ذكره من شواهد على محاججته المنجمين محاججة عقلانية ضمن زعمهم معرفتهم بأحكام النّجوم وردّ استدلالتهم واستنتاجاتهم التي يبنونها على أسس يوسمونها بـ»العلميّة".

عدا ذلك لم يقف الماوردي عند استخدام معرفته العقلانية في العلوم التجريبية بل وظّفها في العلوم الأخلاقيّة والسياسية، ففي الأحكام الأخلاقية رأى أنّ النفس لا يصح أن تترك دون تربية خُلُقية اعتمادًا على الطّبع وإبطال إعمال العقل لأنّ النفس تتأدب بالتجربة والمعاناة والدُربة والمُعاطاة ويدلل على ذلك بأدب المَشُورة التي هي من أدب المواضعة والاصطلاح فالمُستشار لابُد أن يمتلك من الصلاح والخبرة ورسوخ التجربة ما يُعزز فيه إبرام الأمور وتوجيه النّصح الجيد ورجاحة الآراء، وحَرص الماوردي على أهمية «التّجربة» في تعزيز الأخلاق ذلك لأنّ الأخلاق ما هيَ إلا غرائز كامنة تُظهَر وتُعزَّز بالاختبار وأنّ هذه الأخلاق تنتج عن أفعال بإرادة المرء.

يذهب الماوردي أيضًا إلى أنّ التجربة عمود الظاهرة السياسية لا الأخلاقية وحسب، فبحسب الماوردي لا بُد أن يكون السّائس صاحب عقلية علميّة وتجريبيّة فمعالجة المَلِك للفساد في الدولة قائم أساسًا على معالجة الأسباب التي أفضت إلى خلخلة شؤون الدولة فضلاً عن تقريب مستشارين ووزراء ذوي خبراتٍ محنكة وحدس جيّد ومعارف واثقة.

إذن نلاحظ أنّ الماوردي يُعوّل بشدة على المعارف الاكتسابيّة بطريق النظر والاستدلال في تقييم الظاهرة الأخلاقية وتسيير أمور المُلك كما أنّه يضع العقل والهوى والرأي ضمن أفعال الإرادة، ويفرق بينهما فالعقل ما تيقن به الصّواب من الخطأ فيما الرأي هو غلبة الظن في ترجيح الصواب على الخطأ، إنّ هذه المنهجية التي أسس لها من أجل عقلانيةٍ علمية لا يُزعَم أنّها مكتملة بالطّبع ولكنها تمثل خاصية التيار الكلامي وقليلاً الاعتزالي اللذين اتّبعهما الماوردي، وواضح أنّ هذه الخاصية في تبعيتها لتيار بذاته تجعلها ضمن إطاره الفلسفي والديني، فالسبب والمُسبب بالنسبة للعلم الحديث يقعان ضمن سياق نفسيهما، بينما بالنسبة للماوردي فهما يقعان ضمن سياق الإرادة الإلهيّة، فكل ما هو مطلوب من طالب العلم والعَالم أن يتساءلا عن الأسباب الطبيعيةَ الظّاهرة وَأمّا الباطنة وما هي غيرمعلومة منها فلا تترك لتجربة علميّة متقدمة يُتوقع ويُحتمل اكتشافها ولكن هذه الأسباب مُقدّرة ولها مشيئة إلهية كما هي الأسباب الظاهرة، بعبارة أخرى فالمعرفة العلمية لدى الماوردي محكومة بسياق ديني أو بسياق المُعتقد أو المذهب، يمكننا أن نضع عقلانية الماوردي العلمية في ميتافيزيقيا الفلسفة التي تجعل ما قد يبدو منطقيا متناقضًا أيضًا، يمكننا مواجهة رؤية الماوردي العقلانية برأي فيلسوف العلم غاستون بلاشار الذي يرفض التدخل الفلسفي في العلم بسبب اختلاف خواص التفكير الفلسفي والتفكير العلمي فالتفكير الفلسفي يتميز بغائيته؛ فالفيلسوف لن يبحث في القضايا العلمية إلا ما يؤكد غايتها الفلسفية، فيما التفكير العلمي لديه حقائق يخضعها للمراجعة المُستمرة ،على ذلك فالتفكير العلمي أكثر انفتاحًا في تقصي الظواهرمن التفكير الفلسفي.

بالطّبع لقد تجاوز الزمن عقلانية الماوردي التي وإن كانت قائمة على التجريب في المقام الأول لكنها لم تتجاوز الأحكام الدينية، ويرجع ذلك إلى عدم فصله عالم الإنسان وعالم السماء عن بعضيهما للتوصل إلى معرفة عقلانية خالية من الميتافيزيقيا، فيما كانت تنظيرات الماوردي في عالم الإنسان وخصوصًا الظواهر الأخلاقية والسياسية أقرب إلى المنطقية؛ كونها تنطلق من معطيات إنسانية مرصودة بتجارب كثيرة أمكَنَ التحقق من نتائجها. أخيرًا يُمكننا القول أنّه وفقًا لملامح العقلانية العلميّة عند الفلاسفة العرب والمسلمين فإنّ الماوردي يلتقي مع ابن خلدون وابن تيمية في رفض الفلسفة المستندة إلى المنطق الصوري كمنهجية للفيلسوف وأنّ المعرفة هي نتاج تكامل بين العقل والحس وما يُبنى عليهما من المعرفة التجريبية، وأن العالم ينقسم إلى عالمين عالم الإنسان وعالم السماء، ففيما لا يمكن معرفة عالم السماء بالعقل فإن قصارى ما يمكن الوصول إليه هو معرفة الوجود الإلهي.

ففي حين وضع فلاسفة المسلمين رؤاهم حول المعرفة العلمية التي تبنوها، فإنّه مع تقادم الزمن دُفعت آراء علمية جديدة فنّدت المعرفة القديمة بينما ما تزال بعض المعرفة قيد الاختبار العلمي القائم على الملاحظة والتجربة بل إنّ العلم الاختباري التجريبي في القرن العشرين أصبح يتعامل مع كيانات غير قابلة للملاحظة إلا عبر رصد تأثيرات بعض الظواهر في المختبرات العلمية الدقيقة التي ترصد الجسيمات دون الذرية لذلك أصبح مجال الافتراض النظري والعقلي سابقًا على الملاحظة بل ومتقدمًا عليها وفوق قدرة التجربة على إثباته.

asmaashamsi@hotmail.com